

ظلال السلطة والمواقف المفارقة في الحكاية الشعبية

حسين نشوان*

نستطيع أن نفهم سبب غياب الراوي وتخفيه في الحكاية الشعبية بخلاف مؤلف الرواية الحديثة الذي يبرز اسمه على الغلاف. وهو سبب يحتمل ترك مساحة من الحماية التي تتوافر له بما يتضمن النص من مواجهة مع النماذج التي يصادفها الواقع، سواء أكان ذلك ما يتعلق بالسلطة أو النماذج الاجتماعية التي تصوّرها الحكاية بطريقة كاريكاتيرية.



الفنون الشعبية يقول الباحث طه الهابطة في كتابه "الحكاية الشعبية في محافظة معان": "إن الراوي عندما يروي، يتحدث بصيغة الغائب، وكأنه يتنصل من مسؤولية ما يروي، إما خوفاً من الاتهام أو خوف أن تفسر على أنها موجهة لفكرة أو معتقد أو لشخص أو حاكم معين". (1) ولم يكن غياب الراوي يتعلق بخصيصة الرواية الشفاهية التي تقوم على النقل والإضافة والحذف فحسب، بل يتصل الأمر

طويل من العمل الشاق بالطرفة والحكاية المسلية التي تسخر من الواقع. كما تخضع الحكاية الشعبية لاختلاف البيئات والتطور الحضاري وتحولات المجتمع. فهي مرآة تعكس تطور المجتمع وتشهد على تفاصيل حياته عبر الحقب والعصور. وقد ظهر التطور في الموضوع والشكل على الحكايات الشعبية في المراحل التي تتصل بالصراعات، والتحولات العاصفة، ومنها السيرة الهلالية، والأميرة ذات الهمة، وعلي الزبيق، وفترات القهر وقسوة الحكم والتسلط، والمجاعات التي عبرت نتيجة الخوف عن نصوصها بنوع من الرمزية والتعمية والنكتة، وقد قيل في المثل الدارج "شر البلية ما يضحك".

ويرى ميرسيا إلياد أن "الحكاية الشعبية تعبر عن التمثيل النفسي الذي يبحث عن حاجة عميقة عند الكائن البشري يعجز عن تحقيقها على أرض الواقع". (2)

وقد أتاحت النماذج التي تحفل بها الحكايات الشعبية بين الخرافية، وحكايات الإنس والجنان

بالمرونة التي تتيحها الحكاية الشعبية للرواة الآخرين من التغيير والمحو والإضافة لمشابهة البيئة، وإيجاد مساحة من التهكم على الحالة التي يعيشها الناس بإسقاطات تاريخية، وإثرائها بالأحداث المختلفة .

وهذا الأسلوب يزيد فكرة الحكاية ومضمونها تعمية، ويبعد إمكانية حدوثها ضمن بيئة معينة، أو انطباقها على شخص معين". (2)

ومن سمات الحكاية الشعبية البارزة، أنها لا تمثل موقفاً فردياً أو شخصياً، بل تصور الوجدان الجمعي بهواجسه وآلامه وصراعاته مع الطبيعة والسلطة، وتختار نماذجها من المجتمع كشخصيات متنوعة بين ثنائيات الخير والشر، والجشع والكرم واللؤم والنفاق والتجبر واللصوصية، وتعيد رسمها بصور تقع بين العبرة والمتعة، فهي، الحكاية الشعبية، تدرك المزاج العام للمستمع الذي يزجي همومه وتعبه بعد يوم

*ناقد وصحفي أردني

الحاكم المغولي، وتشي حكايات البهلول بحال الحكم في زمن العباسيين والصراعات القائمة وقتذاك.

صيغ السخرية وصورها

وتتنوع أنماط السخرية في الحكاية الشعبية بين "الاستخفاف والمداعبة والتعريض والضحك والاستهزاء والتندر والتهكم، وقلب اللفظ والمعنى، وغير ذلك، كما تشتمل على عرض الحكاية عند الراوي وإيماءاته، وسيكولوجية الجسد.

ومن صور السخرية أو أساليبها السخرية بالمحاكاة: "فمه مثل الشراع"، مثل "أبو بريص"، والتقليد في الحركات: "القفز كالقرد" أو استعمال الألقاب، ومنها أبو رجل مسلوخة.

والسخرية بالصوت، وتلويحه ورفعته وخفضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع، وتقليد صوت الحيوانات، ومنها الديك والجمار، والصمت في معرض الحديث أو الإيماءات والابتسام والتكشير والتجهّم، والتصوير المبالغ فيه (الكاريكاتوري) وهو وضع الشخص في صور مضحكة، "رأسه قد القدر"، والسخرية عن طريق التورية أو (السخرية التراجيدية) والصور الملفة المضحكة أو ما يسمى بالادعاء الكاذب، "ضربني وبكى، وسبقني واشتكي"، ومنها اختراع النوادر والنكت وإضافتها إلى شخوص الحكاية، ومنها "من زود عزمي وقعت تحته"، "عند رحيل العرب قامت العورا تتحفف".

وتتنوع صيغ السخرية باستعمال صيغ المغالطة، والأقوال غير التامة أو المبتورة والإشارات بالتلميح دون التصريح، والاستهزاء والتمني والنهي، والتورية وخلافها من صيغ البلاغة، وقلب الكلمات أو المعاني والتجاهل، والتضمين بالشعر العامي والفصيح والأمثال، واستعمال المدح بما هو ذم أو العكس، وغيرها من الصيغ.

وقد يكون الرواي في الغالب (رجلا كان أم امرأة) قد أخذ الحكاية شفاهياً / مشافهة عن راوٍ آخر، ولكنه يعيدها بوعي المتلقي / المستمع ووعيه لمغزى الحكاية ورسائلها، عبر صيغ السخرية القولية الكلامية أو الحركات والصمات.

ومن الحكايات الساخرة التي حملت الكثير من المفارقات والإسقاطات التي تتعلق بنقد السلطة والواقع المعيش، ما يتعلق بجحا، الذي يقال إنه مثل النموذج الحكائي لنقد تيمورلنك، وبهلول الذي اقترنت حكاياته بواقع الحال في بيت الخلافة

والسحرة، وتنوع أنماط الحكاية والأساليب إلى امتلاك نوع من البلاغة التي تمزج بين قسوة الواقع المعيش والطفرة من خلال المفارقة التي تنطوي عليها الأحداث والمواقف والصفات، وهي مفارقات لا بد أن تعكس تقاليد المجتمع ومعارفه والمقبول والمعقول في السلوك الاجتماعي وغير المعقول والمقبول في المجتمع. والحكايات غالباً ما تتناول الصفة العامة للشخص، وليس الأسماء، فغالبية أبطال الحكايات، هم: (حطاب أو صياد، سلطان، تاجر، نجار، عجوز، أمير، وأسماء نمطية عامة، عبد الله، عبدالرحمن، جبينة، حديدون).

الحكاية في التراث

برز في التراث الحكائي العربي الكثير من النماذج "الأبطال" التي صورتها الحكايات كنماذج و"كركرات" تتصف بالقوة والشجاعة والكرم، وفي مقابلها السذاجة أو الحيلة أو "الهبل" والتهكم، ومن النماذج التي ارتبطت بالنكتة والطفرة في التراث العربي: "جحا" و"أشعب"، "البهلول"، و"قراقوش" و"هبنقة".

وهناك العديد من الكتاب الذين أسسوا للكتابة الساخرة، ومنهم ابن المقفع والجاحظ في البخلاء. وصدر العديد من الكتب التي تناولت مثل هذا النوع من الحكايات الطريفة، ومنها (أدب النديم) لكشاجم، و(جمع الملح والنوادر) للحصري القيرواني، وغيرها من المؤلفات الحديثة والمعاصرة.

ما يهّم قوله هنا أن "النكتة" أو الطفرة، برزت في الحكاية وفق السرد الكوميدي، وهو سرد يقع بين الحزن والأسى والضيق بالحال، وجاءت في غالب الأحيان للتعبير بالتلميح دون التصريح والإشارة دون المباشرة والرمز دون الإفصاح لتجنب القهر والعقاب.

تقوم الطفرة والنكتة على المفارقة في الموقف المستمد من الحياة المعيشة، والوصف، والحيلة والذكاء، والبله والغباء، ولا يتوقف غرض السخرية عند التسلية والضحك، بل تستعمل كوسيلة للتحذير والتثقيف والعبارة، لكي لا يتعرض لمثل هذه المواقف، ويكون "لقمة سائغة للآخرين".

ويحمل التراث العربي الكثير من النماذج الحكائية عن قراقوش، وجحا وهبنقة، والبهلول، وهي مواقف تنطوي على إسقاطات سياسية.

أما النكت التي تقال باسم جحا، فهي مرتبطة بتيمورلنك



وتلجأ النساء الراويات حينما يتحدثن عن الغرائز إلى التلميح دون التصريح، كما تظهر النكتة في الحركات الجسدية وحركة اليدين والإيماءات وملامح الوجه بين العبوس والضحك والقهقهة، والإشارات التي يضحها المتلقي.

وفي الحكاية الشعبية في الأردن يورد طه الهباهبه في كتابه "الحكاية الشعبية" الكثير من الحكايات التي تنطوي على الطرفة والملحة والنكتة، ومنها الحكايات التي تظهر سذاجة الرجل وذكاء زوجته وأبنته، "حكاية الفلاح الغبي"، "امرأة الفلاح"، "الولد وابنة الشيخ"، "أولاد الأمير" ومفارقات العجوز المحتالة، وتنطوي على الحكمة التي تأتي من خلال الموقف الساخر الذي ينتج عن المفارقة بين الطمع والبخل بين الغني والفقير، والحاكم والانسان البسيط، فالحكاية حتى في النكتة والطرفة لا تخلو من العبرة والتسلية والمتعة. ومن هذه الحكايات التي تنطوي على المفارقة والنكتة .

العباسية، هارون الرشيد وزوجته زبيدة، ولعل الحكايات التي تنقل عنه تشير إلى حال الناس مقارنة مع الرفاه الذي يعيشه الحكام وقتذاك، ويمثل قراقوش تعسف السلطة وجبروتها بالحكم المطلق والعجائبي، فقليل في المثل الشعبي: "مثل حكم قراقوش"، وربما لا يخلو الأمر من مبالغته إلا أنه يعكس الحالة النفسية للراوي الذي يستمد سرده من أحوال المجتمع. أما الحكاية في المجتمع الأردني، أو كما تسمى على أسنة الرواة، "الخرافية" من الخرافيف، أو (السالفة) فهي الحكاية الشعبية المتناقلة شفاهاً، وتتنوع بين حكايات الإنسان وعلاقته مع الطبيعة، والجان والحيوان والغولة، وتتسم بأنماط حكائية في المقدمة والخاتمة، وتمتاز بحسب الباحث طه الهباهبه بالحكي بصيغة الغائب، وغياب المكان والزمان.

وتتجلى النكتة في الحكاية الشعبية الأردنية في مفارقة الموقف، ويشتمل الكثير من الحكايات على التضمين بالمثل الدارج: "اللي بستحي من بنت عمه ما يبجيه عيال"، و"يا طالب الدبس من ... النمس"، كما تحتوي على القصائد الشعبية:

ربي حسيب على النسوان حتى العجايز تجازيهن

ما جربن لوعة الولهان نسين عمير جرى بيهن
والحكم والمعارف والعادات، التي تتناول طرق الطعام والشراب، والسلوك والتربية والتي تبين أخلاق الإنسان، كما تنطوي الحكاية على أساليب يستعملها الراوي دون إدراك لقواعدها اللغوية،

هذه الحكاية تعبر عن نزع الإنسان إلى مقاومة القهر والتجبر، وتصور جبروت السلطة، واستسلام الناس واستلابهم والنتيجة التي تقع على الناس، وهي حكاية رمزية قابلة لإسقاط وقائعها على الزمان والمكان في مختلف العصور، وهي لا تحدد الزمان ولكنها تشير للحالة، وتوحي بأن فكرة التغيير تقوم على الشباب، وهو من الذكاء أنه استطاع أن يحسن التخلص من الموقف عبر النكتة والمفارقة حينما رأى الموقف الجمعي، وذهب لما هو غير متوقع بالنكتة التي توافق أن "شر البلية ما يضحك".

والحكاية التي تنطوي على كثير من الإشارات والتأويلات تخفي الصراع بين نمط الإنتاج الرعوي والفلاحي في مرحلة تاريخية من الزمان، وتنطوي على نصوص مضمرة عن وحدة الجماعة: "يد الله مع الجماعة"، والحال التي يصل إليها الناس عند فرقتهم، ويتوافق مع ذلك ما يشبه "الموندراما" في عرض الرواي من تلوين في الكلام بين الارتفاع والخفض والصمت، والحركات الجسدية التي يمثلها الراوي في المواقف المختلفة التي تخلق المتعة والتسلية والفائدة وجمال الروي.

مراجع وقراءات:

- (1) الهباهبة، طه: "الحكاية الشعبية في محافظة معان"، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمّان 1992، ط 2
 - (2) الهباهبة، طه: المرجع السابق
 - (3) برونو، بتلهاميم: "التحليل النفسي للحكاية الشعبية الفلسطينية"، ترجمة طلال حروب، دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1985.
- (* رواية شفاهية، عبدالله نشوان، ٨٠ عاماً

ناقاة الشيخ (*)

"أحد الشيوخ كانت له ناقاة، وهذه الناقاة "مطلوقة" تدخل زرع الفلاحين وتعيث بها، وتأكل الأخضر واليابس، فضج أهل القرية، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ أن يقول للشيخ إن ناقته خربت الزرع والضرع، لأن "كلب الشيخ شيخ". وذات يوم، وبينما الجميع في "المجلس" يتبادلون الكلام شكا بعضهم من "الضيم" الواقع عليهم من الشيخ وناقته التي لا يستطيع أحد أن "يردها" ويمنعها عن الزرع.

ضجت الناس، وقالوا شو الراي، وتشاور الجميع، وكان كل واحد يقول اللي عنده، ويمد حجته، لكنهم لم يتفقوا على شيء، فقام شاب، وقال ترى الراي عندي،

قالوا ويش الراي؟!

قال، كلنا بنروح على بيت الشيخ، وبنقعد، وما حدا بحكي، ولما بسألنا ما حدا بجواب، بعاود بكرر الكلام، ما حدا بجواب، وفي المرة الثالثة بقول أحكوا يا هالربع، أنا بقول : ناقتك يا شيخ.

هو بقول مالها الناقاة، انتوا بتقولوا بصوت واحد، خربت الزرع، وأكلت القمح والشعير، وما خلت.

هذول اتفقوا يلتقوا بعد صلاة العشا، ويروحوا عند الشيخ. وفعلاً تجمعوا، ورحب فيهم الشيخ، ولما شافهم ساكتين، قال، في بعيونكم حكي، أحكوا، وكررها ثلاث مرات. نط الشاب، وقال : ناقتك يا شيخ.

قال الشيخ مالها ناقتي؟!

استنا الشاب لحدنا يرد، ولكن الكل "طمل" رأسه وسكت.

قال الشيخ مالها ناقتي؟!

نظر الشاب للناس، وكان على رأسهم الطير، ما حدا "لا من كمه ولا من ثمه".

قال الشيخ بعصيبة، مالها ناقتي؟!

قال الشاب بهدوء وابتسامة: أنا شايف يا شيخ أنها وحيدة، ومستوحشة، ويا ريت عشان تضك وحشتها تجيب معها جمل يونسها، و"نبال من وفق راسين على مخدة".

